العرب السياسية فيما بعد، ايجابياً كان ذلك الدور أو سلبياً. ويصور حمروش تلك الفترة في فلسطين وكأنها حفل تعارف، التقى فيه معظم العسكر الذين استولوا على السلطات في بلادهم فيما بعد، وتبادلوا فيه الحوار والنقاشات والتجارب المريرة. ويقول حمروش: كان المنطلق المصري الى الفكرة العربية قائماً على الوحدة الاسلامية ذات الامتداد التاريخي، إلى جانب النضال المشترك الوليد ضد الاستعمار والصهيونية، وكانت حرب ١٩٤٨ بداية الاحتكاك الحقيقي بين المصريين المتطوعين ورجال الجيش وبين عرب فلسطين وغيرهم. كانت الصلة تزداد وثوقاً مع أخطار الحرب وتضحياتها. وفي هذه المرحلة اكتشف العسكريون المصريون أن طروفهم التي أدت الى عدم انتصارهم على القوات الصهيونية ترجع أساساً الى تهتك النظام الملكي القائم في مصر. ولعل تأثير النكبة هنا على نمو دعاة وقادة التيار القومي العربي كان أوضح من تأثيرها على سقوط الانظمة ومسألة الزمن الفاصل بين النكبة والانقلابات.

في أية حال، تبقى المسألة التي أثارها فيصل حوراني، في هذا المجال، على جانب كبير من الاهمية. ولعل تلك الاهمية لا تعود إلى مضمونها فقط، بل وتعود الى كونها المرة الاولى - حسب معرفتي - التي يتعرض فيها باحث لتفنيد تحليل، استعمال مع الوقت الى مسلمة، بهذه الطريقة وعلى هذا النحو بالتحديد.

ثالثاً: أثر حرب أيلول (سبتمبر) على الطروحات القومية

وهي القضية الثالثة التي أثارها المؤلف، والتي تحتاج الى جدال وتأمل. يرى فيصل حوراني، في سياق تناوله للآثار السياسية لحرب أيلول (سبتمبر)، أن هذه الحرب عمّقت، على مستوى الفكر السياسي الفلسطيني، مسائل كانت تعتمل فيه. ما هي هذه المسائل؟

يقول المؤلف: «ولا شك في أن أولى الآثار تتجلى في اهتزاز القناعات التي كانت سائدة حول مفهوم قومية المعركة. وكانت أكثر الادبيات الفلسطينية والعربية القومية المتصلة بفلسطين، قد خلقت قناعات راسخة بأمرين اثنين: بأن قضية فلسطين هي قضية العرب الاولى، وبأنها قضية العرب كلهم. وبتأثير هذه القناعات، كانت جمهرة الفلسطينيين تتصور أن حملة ضد المقاومة الفلسطينية، من نوع حملة السلطات الأردنية في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، سوف تهز البلدان العربية، وتدفع حكوماتها دفعاً الى التدخل لصالح الفدائيين» (ص١٧٢ - ١٧٣).

ويستنتج المؤلف، ان عدم حدوث رد فعل عربي، كهذا، لصالح المقاومة؛ بل وتواطؤ أو تقصير بعض الانظمة، قد أدى الى اهتزاز القناعات السائدة حول قومية المعركة. ويبرهن على ذلك مستعيناً بأمثلة دقيقة وبراهين مادية تبين، بوضوح، انعكاس هذا الاهتزاز في القناعات القومية على وثائق منظمة التحرير الفلسطينية، والانصراف الى تعميق اتجاهات تدعو الى مزيد من الاعتماد على الإمكانيات الفلسطينية.

وبغض النظر عن وثائق منظمة التحرير، فان القوميين الذين يتمسكون بنظرتهم، على الرغم من وجاهة الأسباب التي تحتم اهتزاز قناعاتهم، يسارعون الى الرد بما يلي:

١ - ان مرحلة تلك الحرب كانت تتميز بالجزر لا بالمد، على مستوى حركة التحرر العربي والانظمة الوطنية. وبالتالي، فقد حالت طبيعة المرحلة، بين حركة التحرر العربي والوقوف الى جانب المقاومة.

٢ - ان الحرب في لبنان... لم تؤد الى نفس النتائج. فقد وقف قسم كبير من اللبنانيين، في نفس الخندق الفلسطيني ضد اللبنانيين الانعزاليين؛ مستبقين احتمال الرد، بأن للبنان وضعاً فريداً لا ينسحب على النطاق القومي كله، بأن يقولوا أن للأردن أيضاً، بل ولكل قطر، وضعه الخاص فلا يجوز سحب ما جرى هناك على ما يجري هنا.

إلا أن الملاحظة الاساسية، التي لا نملك إلا أن نشير إليها هنا، هي أن منطق بعض القوميين، الذي لا يتفق مع ما ذهب اليه مؤلف «الفكر السياسي الفلسطيني»، ظل منطقاً نظرياً تعميمياً مجرداً. أي أنه ظل أسير التنظير، ولم يتخط هذه الحدود، إلى مجال البحث الاكاديمي والعلمي الموضوعي المنهج -